قصة لويس ده رُجمون

الفصل الرابع

لما انتعشتُ على اثر شرب الماء من الشجرة نمتُ نوماً عميقاً وذهبتُ بيما تفتش عن طعام لقوتني به ثم عادت ومعها الأبُسّم علّقتهُ بين ثلاثة اعواد واضرمت ناراً تحتهُ فلما استيقظتُ اكلت قليلاً من لحمهِ فعاد اليَّ بعض نشاطي وعلمتُ بعد ذلك ان الشجرة التي خرج منها الماء من اشجار استراليا التي سماتها كالقنينة شكلاً وهي بملأ ماء فاذا ثقبتها انصبَّ الماء منها. ولم تكن

صورة الابسم الاميركي وأولادهُ على ظهرهِ

يبا تعلم ذلك لان هذهِ الشجرة لا تعيش في بلادها. أما ما وقع في اختيارها واختيار قومها فلم تكن فائدتهُ تفوتها ابداً فانها كانت تنظر الى ساق الشجرة فاذا رأت عليها خموشاً لا تكاد العين تتبينها لصغرها علمت ان فيها حيواناً من نوع الابُسّم صعد عليها تخمّش ساقها بمخالبهِ وهو صاعد فتصعد وراءهُ وتنقضُّ عليهِ كالباشق وتعود بهِ باسرع من البرق وتشويهِ لي في جلدهِ وتضيف اليهِ بعض الجذور فاجدهُ طعاماً طيباً

ولما اشتدَّت رجلايَ سرت معها الى المكان الذي وجدت فيهِ الماء وكان الماء آسناً لكنها حفرت حفرة بجانبهِ حتى تحلَّب اليها صافياً نقياً واقمنا هناك الى ان استعزناهُ كلهُ ثم قمنا نضرب في تلك المهامه وكانت اذا وجدت في طريقها ارتفاعاً قليلاً في الارض كقبضة اليد تقول هنا

ضفدع وتحتها شيء من الماء فتدخل قصبة في الارض طولها نحو قدم ونصف وتطلب مني ان امصها فيتبقى في ماء باردًا

وما زلنا نواصل السير في جهة واحدة الى ان دخلنا ارضًا شجراء كثيرة اليوكاليتوس غزيرة الماء لكننا لم نجد فيها صيدًا فاضطربت بما من جراء ذلك وقالت قد غادر الصيد هذا المكان خوفًا من الامطار والسيول فانها صارت على الابواب ولا بد لنا من ان نتصيد الجود العالية . وكان امامنا روابٍ كثيرة فاخذنا نصعّد فيها الى ان بلغنا ضفة نهر كبير فنصبنا عليها خيمة من اغصان الاشجار واقمنا فيها وعرفت بعدئذٍ ان هذا النهر نهر الروبر الذي يجري شرقًا ويصبّ في خليج كربتاريا في الشمال الشرقي من استراليا

وذات يوم رأيت الحيّات تسارع الى شجرة وتصعد عليها فاخذت امنعها من الصعود ورأتني بما من بعيد فنادتني وطلبت مني ان ابعد عنها ثم اقبلت اليّ وقالت ان التجاء هذه الحيات الى الاشجار يدلّ على اقتراب السيل فأريد ان اعرف هل صعدت من نفسها او خوفًا منك . ولم اكن ارى في الجو اقل علامة تدلّ على قرب وقوع الامطار . وكان المطر قد احتبس منذ شهور كثيرة وجفّت الغدران ونضب الماء من ذلك النهر حتى كاد يجف ولكنني شعرت حينئذٍ بانتباض في نفسي كمن يتوقّع داهية دهماء ثم سمعت دويًّا بعيدًا كان يقترب رويدًا رويدًا والحال اخذ ماء النهر يجيش ويرتفع ثم جاء السيل فاترع الوادي باسرع من لمح البصر ورأيت حينئذٍ ان الامطار وقعت على البلاد المجاورة واترعت اوديتها وغدرانها فمدّت النهر فطمّ وطفى وعلا ماؤه اربعين قدمًا في ساعتين من الزمان . ووقع المطر على ابداننا فلم نعبأ به بل اخذنا نفتش في تلك الجود عن طعام نتقوّت به فوجدنا جمّار[1] نوع من النخل وعسلاً بريًّا ورأت بما اشجارًا خفيفة الخشب فقطعنا جذوعها وربطناها معًا بقدد من جلد القنفر وصنعنا منها رمثًا كبيرًا وعزمنا ان نركب به النهر ونسير الى حيث يجري بنا السيل الى البحر المحيط . واصطدنا كثيرًا من القنفر والابسم وقدّدنا لحمها زادًا وجمعنا عسلاً وجمّارًا ثم ركبنا الرمث ومعنا كلبنا نجري الماء بنا بسرعة تفوق التقدير . وكنت عازمًا ان نواصل السير الليل كلّه لكن بما منعتني وقالت ان سفر الليل هنا لا يخلو من المخاطر ودفعت الرمث الى الشاطئ فمررنا بين اشجار كثيرة غمرها الماء الى اغصانها ورأينا الحيات ملتفة عليها فوق الماء فصدنا كثيرًا منها وهي غير سامة فاضفناها الى زادنا

وسمعنا في اليوم التالي صوتًا يصمّ الآذان فعلمنا ان امامنا شلالاً يتصبّب الماء منه فراعنا

(١) الجمار مادة بيضاء طيبة الطعم تكون في رأس النخلة

الامر وقبل ان نستطيع تحويل الرمث اندفع بنا نحو الشلال بسرعة البرق وصرخت بيا بأعلى صوتها تطلب مني ان استلقي على بطني واتشبث بالرمث وفعلت هي كذلك بعد ان ضمت الكلب الى صدرها . وقذفنا الماء وجرى فوقنا جريًا عنيفًا وهو يرغي ويزبد كالرجل فوق الثائر ولو لم نكن لاصقين بالرمث لجرفنا عنهُ لا محالة ثم دفعنا من فوق الشلال وكان النهر تحتهُ واسعًا والماء قليل الاضطراب ضعيف الجري فوصلنا اليهِ سالمين ونحن لا نصدق ذلك . ولما سكن روعنا دفعنا الرمث الى الشاطئ وبتنا فيهِ تلك الليلة . وقمنا في اليوم التالي وواصلنا السير وكان النهر يتسع رويدًا رويدًا فاضطربت بيا من ذلك وقالت اننا لا نعود بعد الآن نبلغ الشاطئ معًا اجتهدنا وامسكت بالدفة لاني لم اعد استطيع ان اميز بين مجرى النهر والارض التي طغى

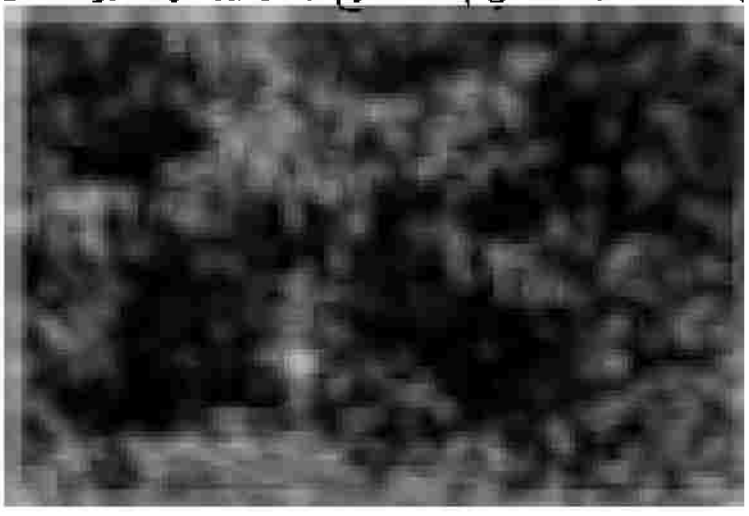

القفر الاسترالي

عليها وصارت الارض كلها بحرًا مغمورًا بالماء على مدى النظر لا يظهر فيها الاَّ اغصان الاشجار العالية . ثم رأينا بعض الجزائر عن بعد فاستنتجنا اننا دنونا من البحر فهدأ روعنا وكنت خائر القوى لكثرة ما قاسينا في اليومين الاخيرين فطلبت اليَّ ان انام واستريح فنمت ساعتين او ثلاث ثم استيقظت واذا بالرمث واقف بين اغصان الاشجار الشبكة فقلت لها ماذا جرى وهل علقنا بين هذهِ الاشجار فقالت انظر ما نحن فيهِ . فنظرت واذا حولنا جيش من التماسيح وهي فاغرة افواهها تقصد ابتلاعنا ولا يمنعها من الوصول الينا الاَّ اغصان الاشجار الملتفة حولنا

فانظر رعاك الله الى ما نحن فيهِ — انظر الينا وحيدين شريدين في هذا النهر تحيط بنا التماسيح من كل ناحية وليس معنا من الزاد الاَّ القليل . وقد خاف الكلب منها وجعل يهرُّ ويرتعد

فيزيدنا حيرةً وكانت تزأر كالاسد وتحاول الهجوم علينا فتمنعها اغصان الاشجار

ثم خيَّم الظلام والتماسيح تزأر حولنا وكنا نسمع صرير اسنانها ونعلم انها تخمن الفرص لالتهامنا وعزمت مرارًا ان ادفع الرمث بينها فان هلكنا هلكنا وللموت خيرٌ من انتظاره لكن بيا كانت تنهاني عن ذلك لان حبل الرجاء لديها امتن . ولما لمع وجه الصباح جعلت التماسيح تفارقنا الواحد بعد الآخر كأنها ملَّت الانتظار فتنفسنا الصعداء ودفعنا الرمث من فرجة ضيقة نخرج منها وجرى مع التيار الى ان دنونا من جزيرة صغيرة فوجدنا فيها كثيرًا من طيور الماء وعشاشها وبيضها فاصطدنا بعضها واكلنا واسترحنا . ثم عاودنا السير فبلغنا جزيرة اخرى كبيرة وكانت مسكونة كما يظهر من الدخان المتصاعد منها وكأن سكانها رأونا فاضرموا النار علامةً لنا حتى اذا بلغنا الشاطئ رأينا كثيرين منهم اجتمعوا لاستقبالنا وقد اشرعوا علينا رماحهم وكادوا يرشقوننا بها لو لم ننهض حالاً واشير اليهم اني اريد ان انزل واخاطبهم في امر هامٍّ فنهضوا رماحهم ونزلنا اليهم ولكننا لم نقدر ان نفهم كلمةً من لغتهم لا انا ولا بيا فقعدنا القرفصاء حسب عوائد الاستراليين وجعلنا ندنو منهم رويدًا رويدًا الى ان وصلنا اليهم ومددنا عليهم بحبك الالوف على الاكتاف. وعرضتُ عليهم العصا التي معناجرازًا ففهموا المراد بها واظهروا لي القبول بعد الجفاء . ثم اخبرتهم بالاشارة اني اريد ان اقيم عندهم بضعة ايام وان مرادي ان اجد اناسًا يبيعونني مثلي فاخذونا الى بيوتهم وقدموا لنا طعامًا من السمك ولحم الاصداف والجذور فاقمنا عندهم ثلاثة ايام ثم ودَّعناهم فاعطونا قاربًا صغيرًا من قواربهم بدل الرمث وهو جذع شجرة نُقر وهذِّب حتى صار كالقارب فسرنا بهِ نحو الشمال الشرقي لكي نبلغ رأس يورك ومررنا بكثير من الجزائر الصغيرة وكنا نجتهد حتى لا نبعد عن البر لان القارب صغير لا يؤمن السفر بهِ في عرض البحر. وكنا ننزل الى البر احيانًا ولقيت مرةً اثنين يتكلمان الانكليزية قليلاً وعلمت منهما انهما كانا في سفينة من السفائن التي تصيد اللؤلؤ وسألتهما عن مكان اجد فيهِ رجالاً من البيض فاشارا الى الشرق (الى رأس يورك) وقالا انهم يبعدون عنا عدة اقمار اي عدة اشهر

وما زلنا نسير نهارًا ونلجأ الى الشاطئ ليلاً ونحن نقتات بالمحار وبيض طيور البحر الى ان فرغ صبري وظهر على بيا علامات الضجر والمرض

وذات يوم كنا خارجين بالقارب من جون صغير فالتفتُّ الى البحر واذا اماما سفينة قريبة من الشاطئ فنهضت على قدميَّ وانا لا اصدق عينيَّ وجعلت اشكر الله وقلت ليبا لقد نجونا ودفعتُ القارب نحو السفينة الى ان بلغناها واذا هي واقفة في الوقارق لا تكاد تتحرَّك لان البحر

كان جائزاً ولم يكن فيها احد . ثم التفتُّ الى الشاطئ فرأيت فيه كوخاً فسرعت اليه فلم اجد فيه احداً ولكني وجدتُ آنية فيها من الحيوان المعروف بخيار البحر فوقفت انا وهما مدهوشين واذا بالناس من الملقيين[1] اقبلوا علينا فعلمت انهم من صيادي هذا الحيوان وقد دهشوا من رؤيتنا اكثر ما دهشنا من رؤيتهم وكلّمتهم بلغتهم فرحّبوا بنا ونزلونا الى سفينتهم وعرضوا علينا السفر معهم . لكن بيا ابت ذلك قائلة انها لا تسافر معهم وابعدت عنهم وجعلت فرائصها ترتعد خوفاً وقالت لي سرّاً انا اذا ذهبنا معهم قتلوني واخذوها . فحرتُ في امري ووقفت لا ادري ماذا افعل فقد عرضت لي فرصة النجاة بعد ان انتظرتها اربع سنوات بذاهب الصبر واراني الآن مضطرّاً الى رفضها وقد لا تعرض لي فرصة اخرى مثلها . ولو رأيت بلادي على مبل واحد مني ولم ترضَ بيا ان

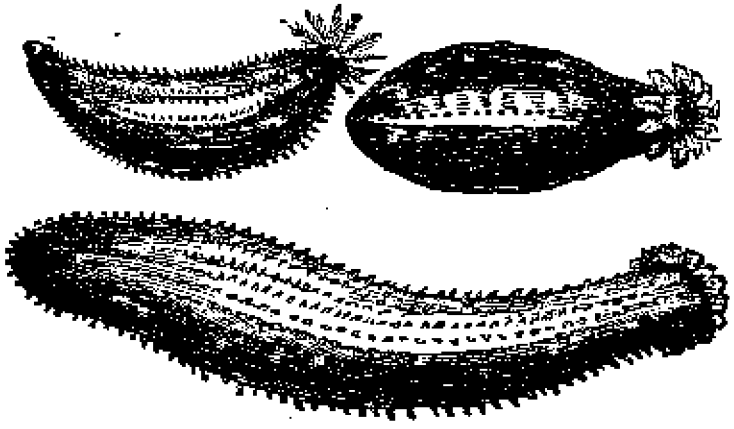

خيار البحر

ترافقني اليها بعد ان بذلتُ ما بذلت لنجاتي واتتدني بنفسها مراراً كثيرة لقضت عليَّ الشهامة بالبقاء معها . وحاولتُ اقناعها لتنصرف عن عزمها فلم اجد منها الاَّ الاصرار فاضطررت ان ارفض ما عرضوهُ عليَّ . فدلوني على مكان فيه قبيلة من السود واوصلوني اليها فرأيتُ شيخها يتكلم الانكليزية جيداً ويسمي نفسهُ القبطان دافيس وعلمت منهُ انهُ خدم في سفينة انكليزية مدة طويلة وقال لي ان على مسافة غير بعيدة من محلّتهِ مستعمرة اوربية وعرَض عليَّ ان يرافقني اليها ثم اراني مكان مستعمرة أخرى هجرها السكان بعد ان اقاموا فيها مدة ورأيت هناك كثيراً من الاقتاض والحدائق والاشجار المثمرة مما زرعوهُ فيها وتركوهُ لما هجروها . فطابت نفسي جداً اني صرت على مقربة من منازل البيض

ثم سرتُ معهُ الى المستعمرة الاولى فبلغناها في يومين فوجدتها خالية خاوية كانَّ

(١) من سكان ملقا في الجنوب الشرقي من آسيا

فساد الهواء ترض سكانها فخلفوا ما غرسوهُ فيها من الاشجار وما اقاموهُ من المساكن وعمت منهُ انها كانت مقرًّا للمحكوم عليهم بالسجن المؤبد ثم هُجرت لكثرة الامراض الغيلية فيها . ورأيت هناك كثيرًا من الجدائن فيها الموز والخوخ وفي المستنقعات كثيرًا من الوز والبط ودجاج الماء فاقمنا فيها نحو اسبوعين ثم عدنا الى تحلقه . وصنعتُ انا وبيا خيمة نزلنا فيها لانهُ اخبرني ان السفن تمرُّ من هناك احيانًا كثيرة

ولم تمضِ عليَّ ايام في تلك المحلة حتى أُصبت بحمى غيلية خبيثة يتبدى بقشعريرة شديدة فاقامت بيا على تمريضي بالصبر والتأني وكنت ازيد ضعفًا ونحولاً يومًا فيومًا. ثم اعتراني الهذيان حتى لم اعد اميز احدًا . وانخفضت الحمى بعد ايام وتركتني ضعيفًا ضعيفًا كاضعف ما يكون . وكان بي شوق شديد الى شرب اللبن حتى صرت احسبهُ ماء الحياة . واخبرني احد السود ان في البلاد جواميس بربة ما كان عند البيض وتبدَّى بعد ان هجروها فعزمت ان اصطاد جاموسة منها لاشرب لبنها وخرجت لذلك انا وبيا فرأينا آثار الجواميس بقرب الماء وصعدنا كلٌّ منا على شجرة واقمنا ننتظرها

ولم يكن الاَّ قليل حتى اقبلت جاموسة كبيرة ومعها عجلها وكان معي حبل من قدّ جلد الفنقر عقدت فيهِ انشوطة كبيرة وربطتهُ بعصا طويلة وانتظرت حتى صار العجل تحتي فانزلت الانشوطة وادخلتها في عنقهِ وزردتها فعلق بالحبل ووقفت امهُ تخور بجانبهِ فتركت العصا من يدي لجرها وسار بها ولم يكن الاَّ قليل حتى علقت بين الاشجار المتشبكة كما انتظرت ووقف لا يستطيع النجاة ووقفت امهُ تحميهِ وتحاول تخليصهُ . ورأت بيا ذلك فنزلت عن شجرتها تريد المجيء اليَّ واذا بثور كبير اقبل من الغاب وهجم عليها فاسرعت الى الشجرة وصعدت عليها قبل ان ادركها فوقف بجانب الشجرة يخور ويحفص الارض بيديهِ كمن يريد اقتلاعها وكانت تومي معي فنزلت ودنوت منهُ ورشقت سهمًا وكأنهُ سمع صوتي فاقبل عليَّ حتى اذا صار على بضع خطوات مني فوَّقت السهم ورميتهُ بهِ فاصاب عينهُ فشخر وفخر وكانت بيا قد نزلت من الشجرة وبادرت اليهِ فتركني وعاد اليها فتبعتهُ وفوَّقتُ سهمًا آخر ورميتهُ بهِ فاصاب عينهُ الاخرى فاكبَّ على وجههِ ثم بادرتُ اليهِ بنامي وضربتهُ على رأسهِ ضربات متوالية الى ان اجهزتُ عليهِ . وكان قوتي عادت اليَّ في تلك الساعة وفارقتني الحمى حتى اذا قضيت امرهُ عاودني الضعف فرأيت ان اجرّب علاجًا يستعملهُ الناس في هذه البلاد وهو انهم يقترن حيوانًا كبيرًا ويقيمون في بطنهِ مدة فعملت ذلك وعلمت بيا مرادي فجلست بجانبي واقامت تحرسني بقية ذلك النهار والليل التالي . واستيقظت في الصباح وقد فارقتني الحمى وعادت اليَّ قوتي فذهبت الى بركة

بجانب المحلة واغتسلتُ فيها وفركت بدني بنوع من الطين الصابوني فخرجت كأني انسان جديد. وصنعت قترة من اغصان الاشجار طاردنا الجاموسة اليها وحصرناها فيها وتركناها يومين بلا طعام ولا ماء حتى جاعت وذلّت ثم قدمنا لها الطعام والماء فرأيناها قد صارت أليفة فربطناها وجئناها بحبلها وحلبناها وجعلت اشرب من لبنها واقتصرتُ عليه بضعة ايام فانتعش جسمي. اما الجاموس الذي قتلتهُ فاعطيتهُ للسود فقطعوهُ واكلوهُ وقد اذهلهم ما بي من المهارة واليأس وسلخت جلدهُ وجعلته بساطاً انام عليه والتفُّ به اذا كثرت الامطار

واخبرني القبطان دانس ان بورت دارون (في الشمال الشرقي من استراليا) على نحو اربع مئة ميل منهم وان اباهُ اوصل اليها رجلاً من البيض فعزمت ان اقصدها لعلي اجد فيها اناساً من الاوربيين واعدَدت لها ما امكنها اعدادهُ من الزاد ونزلنا في القارب واخذنا الكلب معنا وسرنا محاذين الشاطئ يومًا بعد يوم الى ان قربنا منها ثم ثارت علينا عاصفة شديدة ردّتنا على اعقابنا اميالاً كثيرة واشتدَّ النوء ذات يوم فخفنا ان ينقلب القارب بنا فيغرق كل ما فيه من الزاد والماء فنزلت منهُ انا وبيا وغصنا في الماء وامسكنا به من جانبيه لكي لا ينقلب وزاد هياج البحر مساء ذلك اليوم وتعاظمت امواجهُ واشتدَّ حلك الظلام ولكننا لم نيأس من الحياة

والمرء ما عاش ممدود لهُ امل ... لا تنتهي العين حتى ينتهي الاثرُ

وبتنا تلك الليلة عالقين بالقارب من جانبيه تتقاذفنا الامواج ويهرأنا البرد وكأن الدهر ضاق بنا ذرعًا ونحن مستمسكان بحبل الحياة ولسان حالنا يقول

رضينا بدنيا لا نريد فراقها ... على انا فيها نموت ونقتلُ

ثم استنار البحر بنور فصنوري لكي يرينا ما نحن فيه من الشقاء وكلما بدرت مني بادرة اليأس نادتني بيا وشدَّدت عزائمي وذكَّرتني بما مرَّ بنا من الاهوال ونجاتنا منها فاقمنا على مثل جمر الغضا الى ان تبلج وجه الصباح فهدأ اضطراب البحر قليلاً وصعدنا الى القارب ولم نكن نعلم اين نحن وبقينا النهار كلهُ نسير على غير هدًى وفي المساء سكن البحر تمامًا فجعلنا نجذف الى جهة فلناها جهة البر ولم تمضِ الاَّ ساعات قليلة حتى رأينا جزيرة صخرية فنزلنا عليها ورأينا فيها طيورًا كثيرة فاصطدنا بعضها ولكننا لم نجد فيها ماء فاضطررنا ان نشرب تمًا معنا من الماء الذي كنا نحمله في القرب ونمنا هناك تلك الليلة وكانت الجزيرة من جزائر ذرق طيور البحر المعروف بالجوانو ولذلك كانت رائحتها تزهق النفوس. وعدنا في الصباح الى القارب وسرنا على جزائر كثيرة في طريقنا

ستأتي البقية